أي الرجال المهذب

للدكتور بطلر

رئيس جامعة كولومبيا بنيويورك

الدكتور بطلر من اكبر المفكرين الاميركيين في هذا العصر وقد كان استاذاً للفلسفة في جامعة كولومبيا قبل ان يصير رئيساً لها . والاستاذ خولي ناقل هذه المقالة استاذ لعلم النفس والتهذيب في جامعة بيروت الاميركية ومن كتاب العربية المجيدين . والموضوع جدير بالنظر والتأمل فلفت انظار القراء الى هذا المقال النفيس

قام كومينيس البوهيمي منذ مائتين وخمسين سنة وطلب ان تنشأ مدرسة كلية في لندن يجتمع فيها رجال العلم من كل صوب ويؤلفون كتاباً يضمنونهُ مجموع حكمة البشر وعلومهم على اسلوب يلائم حاجات الناس في الحاضر والمستقبل . وكان مشروعهُ هذا جذاباً لاهل القرن السابع عشر ولا غرو فقد كان معتقدهم اذ ذاك ان العلوم ليست الا كمية من الحقائق او المحفوظات ينبغي على المتعلم استيعابها

ولا يزال هذا المعتقد شائعاً بين اهل هذا الزمن . فكم من مرة يستدلُّ على تهذيب فلان بعدد ما يعرفهُ من اللغات او بتعدد العلوم التي تلقاها في المدرسة وبمقدار ما وعاهُ من الحقائق في ذاكرته ثم يظهر بالاختبار ان مثل هذا الاستدلال باطل وان للتهذيب الحقيقي مظاهر اخرى ابعد مرمى وافضل عائدة

فما هو التهذيب إذن؟ هل هو ان يعرف الانسان احوال الطبيعة معرفة تامة منظمة فان كان كذلك فكل عالم من المتقدمين والمتأخرين يكون في مصاف غير المهذبين . او انتهذيب ان يكون للانسان ميل خاص للنظر في بدائع الفنون والآداب ويقضي ايامهُ باللذة التصوري كانهُ في عالم الخيال لا الاعمال ؟ فان كان كذلك فكثيرون من اهل العلم والعمل ممن قادوا افكار معاصريهم وشخّصوا المبدأ الكمالي في زمانهم يظهرون أسمى الصفات العقلية والادبية يعدون من جملة غير المهذبين

ومعلوم ان حشد المعارف يحدق بنا الآن من كل جهة ويذهلنا بوجوه اختلافه ومراميه وعلى كلٍّ ان ينتحي عن الكثير ويختار القليل . فما اجرح الموقف وما اصعب الاختيار وما اكثر الذين لا يحسنون التروي فيعون من المعارف ما لا يجرُّون منهُ نفعاً

ولا يدفعون به مغرماً فكأنهم يكتفون بقول الناس عنهم فلان عالم حافظ لا يفوته شاذ ولا ضرب من تخريجات الكلام مع أن واحدهم لا يملك من حطام الدنيا شيئاً يذكر ولا يمكنه استخدام محفوظاته التي يتنافس بها مع رجال الزمان الطالبين ارزق من ابوابه الناحتين الخير من معادنه

وعليه فبدأ التعلم لحشد المعارف واعتبار كميتها بصرف النظر عن امكان استخدامها والانتفاع بها يسقط من نفسه فلنبحث عن مبدإ آخر في وجهة اخرى

ان المتأمل في حقائق الحياة المحلل ماجرياتها يرى ان المعارف والفواعل اجمالاً لا ترد على وتيرة واحدة ولا تؤثر في العقل تأثيراً واحداً وهي سنة الله في خلقه بها تحفظ الموازنة بين افراد الهيئة الاجتماعية ويحصل التعاضد والتعاون وتقسيم الاعمال لاختلاف المبادىء والمشارب والافكار والمساعي والنيات

انظر الى آلة نفيسة ترَ ان اجزاءها لا يصح التبادل بينها لان ثمَّ حاجات ورغائب لا تسدّ ولا تنال بانابة هذا الجزء عن ذاك. ومثل ذلك اوجه التمدّن العلمية والادبية والفنية والنظامية والدينية مع انها تشتبك بعضها ببعض اشتباكاً وتظهر كأنها غير مستقلة بعضها عن بعض فهي بالحقيقة مستقلة بمعنى انهُ لا يمكن لاحدها ان ينوب مناب الآخر او ان يقوم مقامهُ فينبغي ان يكون لكلٍّ من هذه الاوجه الخمسة علاقة ما في كل تعليم غايتهُ التهذيب . وهذا التعليم متى انتهى الى التثقيف لا يقاس بالفاظ وتعبيرات علمية او ادبية او فنية او دينية بل بما ينتجهُ من الصفات في عقل المدرَّب وسلوكه. والى هذه الصفات ... المستدلُّ على حسن التهذيب لا الى ... او موعيات الذاكرة او محفوظات الذهن . وتوصلاً الى ذلك اذكر خمسة ادلة لحسن التهذيب

اتقان استعمال اللغة الوطنية

وهذا امر حديث في عالم التهذيب لان اللغات الادبية الحديثة لم تعتبر من وسائل التهذيب الا بعد ما انتقض حصر وسائط التعليم باللغة اللاتينية عند نهاية الاعصر المتوسطة . ففي سنة ١٥٤٩ عضد جاك دي بلاي درس اللغة الافرنسية بتصريحه «انها ليست مفتقرة كما يظن الكثيرون » ووضع ملكبتر بعده بقليل كتاباً في التعليم اصرَّ ان يبين فيه سبب وضعه في الانكليزية عوضاً عن اللاتينية — كان اتانيس ينبغي ان يظل محصوراً في اللاتينية

وهكذا كانت الحال في اللغة الالمانية وبقي اثرٌ منها ايضاً حتى قام الامبراطور غليوم الثاني وصرّح لمجمع برلين المدرسي سنة ١٨٩٠ ان التدريس مفتقر الى اساس وطني وان اساس كل الدروس يجب ان يكون الالمانية كما انهُ يجب على المعلمين ان يمرنوا الصغار ويربوهم لينشأوا المانيين لا رومياً ولا رومانياً وان الالمانية يلزم ان تكون المركز الذي يدور حولهُ كل فرع من فروع التعليم وان بروجرام مدارس الحكومة ينبغي ان ينقّح تنقيحاً يجعل لدرس الالمانية وآدابها المحل الاول

فاذا كان اول دليل عند العالم الاوربي على حسن التهذيب جودة استعمال اللغة الوطنية فاين درجة شبابنا وطلبة مدارسنا من التهذيب الحقيقي واكثرهم قاصرٌ عن التعبير عن افكارهم بلغتهِ تعبيراً تامًّا مفهوماً فانهُ اذا اراد احدهم ان يذكر حادثة تاريخية او يشرح مسألة علمية او يصف منظراً راثعاً تعذّر عليهِ استعمال اللغة التي ينطق بها لانها غير فصيحة ولم يجد في محفوظاتهِ من الالفاظ والتراكيب ما يفي بالغرض المطلوب

واذا شاء احدهم ترجمة مقالة ما فانهُ يلاقي الامرّين في التفتيش عن الفاظ واوضاع علمية لغوية تطابق المقصود اذ ليس لهُ ان يشتق صيغة جديدة لما يعرض امامهُ من الالفاظ العلمية الجديدة في اللغات الاوربية الحية او ان يسوق كلمة لغير معناها الحرفي المنقول عن سادتهِ العرب فكان القواعد وجدت قبل الالفاظ وكان الانكليزية مثلاً او الافرنسية انسب من العربية واقدر على اشتقاق الكلمات او كان اللغة غير خاضعة لناموس النمو شأن الصلد الاصم او كان في لغة العصور الخوالي ما يسد كل عوز في لغة العصر الحالي ويقوم بكل مطلب

[illegible]

الاحداث ولا تسدوا باب التعريب بل تساهلوا [illegible] ما كان سهلاً منسجماً واعلموا ان مفردات اللغة واصطلاحاتها متى تداولتها اقلام الكتاب وتنازعتها عوامل الاستعمال عاش منها جانب وهلك جانب طبقاً لناموس بقاء الانسب المسلط على عالمي النبات والحيوان

حسن السلوك

الا ترى انهُ يستحيل على الشخص ان يكون حسن السلوك في كل زمان ومكان ما لم يكن مقتنعاً في نفسهِ بفضل هذا الخلق وجمالهِ . فحسن السلوك إذن مظهرٌ لما

إنطوت عليه النفس واستحسنهُ العقل فان كان ممتَّعاً فحكمهُ حكم غشاء خارجي يزفهُ اقل مسٍّ لانانية صاحبه . ولا يكون الانسان حسن السلوك ما لم يكن في نفسه ترفع واحترام يقودانه الى احترام غيره وخير محك لانسانية الشخص سلوكهُ مع من دونهُ لان سلوكهُ مع المساوين لهُ او مع من هم فوقهُ مكيَّف باغراض شتى يصعب معها معرفة الحقيقي من المزيَّف

وليكن معلوماً انهُ بقدر ما نظهر لاخواننا من الاحترام والمراعاة والتلطف يحكم علينا فيما اذا كان سلوكنا هذا عرضاً مفارقاً او خلقاً ناشئاً عن حسن تربية مغروساً في افكارنا مثمراً في افعالنا . قال الفيلسوف كنت منذ قرن ونيف أن الانسان يحيا بنفسه لنفسه لا ليكون آلة تحركها ارادة هذا او امثال ذاك وعليه فاعمالهُ سواء كانت مختصة به وحدهُ او متعلقة بغيره من الاحياء العاقلة ينبغي ان تعتبر صادرة من حي مطالب لهُ من الحقوق الاجتماعية ما لغيره . وبديهي ان حسن السلوك مبني على ادراك هذه الحقيقة وكل تهذيب يقصر عن غرس المبدإ الادبي في الانسان ولا يحملهُ على السلوك الحسن الناشيء عنهُ فهو حقير في ذاته ناقص في مرماهُ

قوة الثروى والتمرد عليه

قال الكاتب : كثيراً ما عيرنا نحن المحدثين وبالاخص الاميركيين باننا مُغفلو ملكة التروي وخصائصها السامية وذلك ناشيء عن اشغالنا الشاغلة ومناحينا المتعددة واعدامنا الابعاد والوقت بالبخار والكهربائية . نرى العالم باسره قريباً منا وماجرياتهُ ترد الينا بواسطة الجرائد اليومية فيطير فكرنا من منيلا الى بكين ومن بكين الى الترنسفال ومن الترنسفال الى هفانا . تمزقنا العواطف المتضاربة وتشغل افكارنا تصوُّرات شتى تتبع بعضها بعضاً بسرعة غريبة تقصر معها عن التروي في اية حقيقة كانت من الحقائق العظمى . هذا ما يوجههُ الينا المتقدمون وحقيق ما هو

قال سقراط : ان الحياة بدون النظر الداخلي وفحص النفس لا تعتبر حياة — الحياة التي لا نرى علل ما جرى لها في الماضي ولا نعين غاية لها في المستقبل الحياة التي لا غرض لها ولا ندرك ما نرمي بها باطناً او ظاهراً هذه الحياة هي حياة حيوان لا حياة انسان . وهنا تظهر المقابلة بين العقل المهذب والعقل غير المهذب . لصاحب العقل المهذب فطنة وتروٍ واعتبارات خاصة تحملهُ ابداً على العمل في الحالات الجديدة التي ينشرها

لديه سجلُّ الزمان مقتنعاً بصحة ما يعمل لا يقلع عنهُ الاَّ اذا ظهرت لديه ادلة اوضح واكمل تحملهُ على ذلك. لصاحب العقل المهذب اقيسة من الحقائق والحكمة والاختبار البشري يقيس بها كل امر جديد يطرأ عليه وهذه الاقيسة لا تكتسب الاَّ بحسن التأمل والتروي. اما العقل غير المهذب فغريسة للتخيلات الطيارة وضحية للتعاليم الملبَّسة

وما اصدق ما قالهُ رنان: ان اول شرط لارتقاء العقل هو ان يكون لهُ حرية. وعنى بحرية العقل عتقهُ من سلطة ما لا يعقل واطلاقهُ ليختار المعقول المطبق على المبادىء القويمة اذ لا بدَّ لكل رجل مهذب من جملة مبادىء يعتصم بها ويدرج تقدمهُ عليها. ولا مشاحة ان درس الفلسفة هو الذي يرقي قوة التروي في الانسان الى ان يصبح عادة بحكم الاعادة ومثل ذلك درس آداب اللغة والنظامات السياسية والعلوم الطبيعية من وجه فلسفي. واعلم انك متى اخذت تسأل كيف «كيف» «ولماذا» فانت على طريق العلم والفلسفة ومبدأ التروي. والرجل الحقيقي التهذيب يسأل هذين السؤالين على الدوام وتكون النتيجة انهُ يمارس التروي والتبصر في اقوالهِ وافعالهِ

قوة النمو

من العقول ما يرقى الى درجة معينة ثم يتبلور مجازاً او يجمد ويأبى النمو فيما بعد فيعيش صاحبهُ وكأن عقلهُ في عالم النيوبة لا يعمل من الاعمال الاَّ ما يقيه حيث هو لا حركة ولا تقدُّم ولا قوة جديدة. ولا دافع على الدرس المتواصل والتعليم الذاتي اللذين هما ركنا التهذيب وحجلا نمو

ولا مراء ان العقل النامي المرتقي مدى الحياة هو غاية في الجمال ومدعاة لاعجاب الناس. وهذا ما رفع المستر غلادستون الى مناصب عديدة واحقهُ اخيراً للمكانة الاولى عند امتهِ وجعلهُ مثلاً للشبان محبي الرفعة والجاه وهو مثال ما يفيهُ كل عقل مدرَّب يصاحبهُ سعة النظر ورحابة الصدر وعمق التروي وبعد المرمى. أعار التهذيب مظاهر نموه

ثم انهُ من الضروري لهذا النمو ان يكون للانسان غرض عام لان التضييق العقلي والادبي يصاد النمو فهو والنمو في حرب مستمرة. ولا ينكر ان جانباً من التهذيب الحالي هو غير التهذيب الصحيح لانهُ يجعل النمو صعباً ان لم نقل مستحيلاً. وهذا ما يعترض بهِ على بعض مديري المدارس الاجنبية في بيروت وغيرها وهو انهم يسوقون تعاليمهم وذرائع تهذيبهم للطلبة في وجهة لا تفسح للعقل مجالاً للتروي ولا تعوّدهُ ارجاع

المعلولات الى علاتها والاستفهام عن الغامض « بكيف » « ولماذا »

ومن أعداء النمو ايضاً التفرغ الباكر في الحياة لعلم ما فانهُ يحدد مجال المعرفة والمصلحة ويقود الانسان الى التقصير عن ادراك نسبة مصلحته الخاصة الى مصالح غيره. قال الاسقف سبولد في خطاب لهُ: ان الحياة مجلس قوة يرتقي فيهِ الانسان الى درجة الادراك الذاتي ومنها الى درجة معرفة عالم الحق والنظام والمحبة حيث يبطل العمل الناشئ عن الغريزة المحضة ويتسلط العقل والضمير على افعال الانسان وتصرفاته. ثم متى ترقى هذا التسلط تعمداً واختياراً فذلك هو التهذيب والتربية

المضرة على العمل

لقد فات الزمان حينما كانت الغاية الكمالية من التهذيب الانسحاب من العالم وتناعيه للاعتزال والتعمق في التأملات والتخيلات الفارغة واليوم لا يعتبر الرجل حقيق التهذيب ما لم ينتظم في سلك العمل ويبرهن عن درجة معارفهِ بتشغيل ذهنهِ ولسانهِ ويدهِ ويسعى في تحسين الهيئة التي نضهُ ثم يترك العالم ارقى مما لقيهُ. فالعمل ثمرة العلم ودليل على حيوية التهذيب. اعمل يا من تدعي العلم وبسط المعرفة وسعة الاطلاع وكثرة المحفوظات. اعمل أيّ عمل شئت على شرط ان تتقنهُ وتنفع بهِ. عبّر عما لعرفهُ بطريقة مفيدة ولا تتحسس العمل تحسساً ولا تكتفِ بالمعارف الوجدانية ولا تتوانَ عن اظهار شيء منها للغير فتكون اشبه برجل على جانب نهر يحاول العبور الى الجانب الآخر وقوة الماء تصدهُ ويرى لديهِ من الاخشاب والادوات ما يستطيع بها صنع زمت يركبهُ ولكنهُ لا يعد لذلك يداً ويقضي الايام حيث هو. والذي يطالع اميركا اكتشفت سنة ١٤٩٢ ويجهل الاحوال التي صاحبت ذلك الاكتشاف ولا يعرف علاقة هذا التاريخ بغيره فاكتشاف اميركا سنة ١٤٩٢ او سنة ١٣٩٤ عندهُ سيان

هذه الخصائص الخمس هي ادلتي على حسن التهذيب وبها يعرف المهذبون وفي ساحتها يلتقي الطبيب باللغوي والطبيعي بالفيلسوف وكلٌّ يعرف ان صاحبهُ عالم مهذب مع ان وجوه معارفهم مختلفة ومواقف مراميهم متضاربة ولكنهم متحدون بالاخاء مرتبطون برباط الصفات التي نشأت في عقولهم مما تدربوا عليهِ من العلم والعمل. ولكن معلوماً ان بدون هذه الصفات لا يكون الرجل حقيق التهذيب مهما اتسعت معارفهُ بل يكون اشبه شيء بمتحف الآثار يبدي بدائع الصنائع وهو ميت بذاته